الرسالة

(تيطس ٣: ٨-١٥)

يا ولدي تيطُسُ صادقةٌ هي الكلمةُ وإيَّاها أُريدُ أن تقرِّرَ حتَّى يهتمَّ الذين آمنوا باللهِ في القيامِ بالأعمالِ الحسنةِ. فهذه هي الأعمالُ الحسنَةُ والنافعةُ* أمَّا المباحثاتُ الهَذيانيَّةُ والأنسابُ والخصوماتُ والمماحكاتُ الناموسيَّةَ فاجتنبها، فإنَّها غيرُ نافعةٍ وباطلةٌ* ورجلِ البدعةِ بعدَ الإنذارِ مرَّةً وأُخرى أعرِضْ عنهُ* عالمًا أنَّ مَن هو كذلكَ قد اعتسفَ وهو في الخطيئةِ يَقضي بنفسه على نفسه* ومتى أرسلتُ إليكَ أرتِماسَ أو تيخيكوسَ فبادِرْ أن تأتيَني إلى نيكوبولِسَ لأنّي قد عزمتُ أن أُشتِّيَ هناك* أمَّا زيناسُ معلِّمُ الناموسِ وأَبلُّوسُ فاجتَهِدْ في تشييعهما متأهبينِ لِئَلاَّ يُعوزَهما شيءٌ* وليتعلَّم ذوونا أن يقوموا بالأعمالِ الصالحةِ للحاجاتِ الضروريَّةِ حتى لا يكونوا غيرَ مثمرين* يسلِّمُ عليكَ جميعُ الذينَ معي* سلِّمْ على الذين يحبُّوننا في الإيمان. النعمةُ معكم أجمعين. آمين.

العدد ٢٠٠٣/٤١

الأحد ١٢ تشرين الأول

أحد آباء المجمع المسكوني السابع

تذكار القديسين الشهداء بروفوس وطاراخوس وأندرونيكس

اللحن الثامن

إنجيل السَحَر السادس

حرب الأيقونات

كل حرب شنّتها الكنيسة منذ قيامة الرب يسوع حتى يومنا هذا كانت حربًا ضد أي معتقد يمنع عن أبنائها الخلاص الذي أتى به الرب يسوع بتجسده وموته وقيامته حتى نحصل على الحياة الأبدية. كذلك تحديدات الكنيسة العقائدية كانت ترتكز في مجملها على تثبيت إيمانها بالثالوث القدوس من جهة وبشخص الرب يسوع من جهة أخرى. وما الدفاع عن الأيقونات وتكريمها إلا دفاع عن إيمان الكنيسة بتجسد الرب يسوع من أجل خلاصنا لأننا لا نكرّم في الأيقونة الخشب والألوان بل الرب يسوع المتجسد.

من مراجعة الأحداث والخلفيات التي رافقت حرب الأيقونات في الأمبراطورية الرومانية في القرن الثامن للميلاد يتضح لنا أن هناك أسبابًا عديدة ومنها ما هو سياسي كانت وراء هذه الحرب. ويظهر أن أهداف الإمبراطور لاون السياسية والاستراتيجية طغت على الأهداف الإيمانية في حربه ضد الأيقونات.

دفاع الكنيسة عن إكرام الأيقونات يستند إلى الكتاب المقدس. في العهد القديم الله لم يمنع التصوير لكنه منع عبادة الصور، أي اعتبارها آلهة يمكن عبادتها على مثال عبادة الله نفسه، وهو قد أمر بأن يُصنع كاروبان لكي يظلّلا غطاء تابوت العهد، وسليمان الملك زيّن الهيكل برسومات متعددة.

وإذا كان لا يمكن رسم صورة للرّب غير المنظور إلا أنه من الممكن رسم صورة الرب يسوع، ابن الله الذي تجسد وماثلنا في البشرة، ما خلا الخطيئة وقد رأيناه بعيوننا ولمسته أيدينا (١يو١:١). كما إننا نرسم والدة الإله والقديسين لأنهم تألّهوا وتألّقت صورة الله فيهم. غير أن عبادتنا لا تكون لصورة الرب يسوع بل له مباشرة والإكرام لا يكون لصور والدة الإله والقديسين بل لهم مباشرة. وهذا ما عبّرت عنه الكنيسة على لسان قديسها باسيليوس الكبير الذي قال إن إكرام الأيقونة هو إكرام لعنصرها الأصلي. نحن لا نكرّم الخشب أو الألوان إنما نكرّم الذي نصوّره على الخشب ونزيّن صورته بالألوان.

أول من أطلق الحرب على الأيقونات كان الإمبراطور البيزنطي لاون الذي كان شجاعًا ودافع عن مملكته ضد الأعداء. غير أنه وجد في إكرام

الأيقونات ونمو الحياة الرهبانية في الإمبراطورية، إذ تزايد عدد الرهبان حتى وصل إلى أرقام خيالية، مَظهرًا من مظاهر سلطة الكنيسة التي فاقت سلطته ، ما شكّل عائقًا أمام مخططه في الدفاع عن المملكة. كان الإمبراطور يخطط لجذب المسلمين واليهود إلى المسيحية، إلا أن إكرام الأيقونات كان يشكّل عثرة عندهم إذ كانوا يعتقدون أن المسيحيين يعبدون الأيقونة كآلهة. لذا أراد من خلال إزالة إكرام الأيقونات إزالة عائق أمام مشروعه. من جهة أخرى شكّل الرهبان بالنسبة له عبئًا على المملكة واعتبرهم بمثابة العاطلين عن العمل، وهو الذي كان بحاجة إلى جنود له وليس لله، لذا قام ضدهم واضطهدهم.

من هنا يظهر أن الدافع لشن مثل هذه الحرب كان الخجل والحسد؛ الخجل مما تؤمن به الكنيسة والحسد ممن له السلطة الإلهية. وهذا ما نواجهه كل يوم في حياتنا المسيحية، ويدفعنا الخجل بمن نؤمن به وبما نؤمن به والحسد ممن أقامهم الله لإرشادنا في حياتنا بالمسيح إلى المساومة. وقد يؤدي بنا المطاف إلى محاربة إخوتنا في الإيمان ومن خلالهم إلى محاربة ربنا نفسه الذي مات من أجلنا ليعطينا الحياة بقيامته.

المسيحية في الجزيرة العربية

لم تكن المسيحية غريبة عن الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي. فالنصوص القرآنية تذكر يسوع المسيح تحت اسم عيسى بن مريم معتبرةً إياه أحد أهم الأنبياء ومعترفةً بولادته البتولية من العذراء مريم (سورة آل عمران، ٤٧) وبصنعه العجائب كإقامة الموتى وشفاء البرص (سورة آل عمران، ٤٩). فضلاً عن ذلك، ينسب القرآن إلى يسوع أعاجيب لم تُذكر إلاّ في بعض الأناجيل المنحولة، أي تلك التي لم تعترف الكنيسة بها، كالتكلّم في المهد وخلق طيور من الطين. ويتفرّد القرآن بذكر المائدة التي أنزلها عيسى بأمر الله من السماء (سورة المائدة، ١١٤)، وقد رأى فيها بعض معلّمي المسيحيّة صورة عن سرّ الشكر. وتدعو النصوص القرآنية مسيحيي الجزيرة العربية «نصارى» وتعتبرهم من أهل الكتاب لأنّ الله علّم عيسى «الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل» (سورة آل عمران، ٤٨)، وهو جعل الذين تبعوه «فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة» (سورة آل عمران، ٥٥). ورغم أنّ القرآن ينتقد في بعض المواضع انحرافات أهل الكتاب عمّا علّمه الأنبياء، إلاّ أنّه يعتبر النصارى أقرب الناس مودّةً إلى الذين آمنوا برسالة محمد «ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورهباناً وهم لا يستكبرون» (المائدة، ٨٢). كما يضمّ آيات جليلةً في تقريظ حياة الرهبان وما يرفعونه من صلواتٍ طوال النهار: «في بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه يُسبّح له فيها بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب» (سورة النور، ٣٦-٣٨).

الحقّ أنّنا نجهل من كان أوّل عربيٍّ اعتنق الإسلام. غير أنّ كتاب أعمال الرسل يذكر أنّ عرباً كانوا بين الذين شهدوا، يوم العنصرة، حلول الروح القدس على تلاميذ يسوع (أع ٢:١١).والمعروف، فضلاً عن ذلك، أنّ الرسول بولس قضى ردحاً طويلاً من

الإنجيل

(لوقا ٨:٥-١٥)

قال الربُّ هذا المثَلَ. خرجَ الزارعُ ليزرعَ زرعَهُ* وفيما هو يزرعُ سقطَ بعضٌ على الطريقِ فوُطِئَ وأكلتهُ طيورُ السماءِ* والبعضُ سقطَ على الصخرِ فلمَّا نبتَ يَبِسَ لأنَّهُ لم تكنْ لهُ رُطوبةٌ* وبعضٌ سقطَ بينَ الشوكِ فنبتَ الشوكُ معهُ فخنقهُ* وبعضٌ سقطَ في الأرضِ الصالحةِ فلمَّا نبتَ أثمرَ مِئَةَ ضِعفٍ* فسألَهُ تلاميذهُ ما عسى أن يكونَ هذا المثل. فقال لكم قد أُعطيَ أنْ تعرفوا أسرارَ ملكوتِ الله. وأمّا الباقون فبأمثالٍ لكي لا ينظروا وهم ناظِرونَ ولا يفهموا وهم سامعون* وهذا هو المَثَلُ. الزرعُ هو كلمةُ الله* والذين على الطريقِ هم الذين يسمعون ثمَّ يأتي إبليسُ ويَنزعُ الكلمةَ من قلوبِهم لئلاَّ يؤمنوا فيخلصوا* والذين على الصخرِ هم الذين يسمعون الكلمةَ ويقبلونَها بفرحٍ ولكن ليس لهم أصلٌ وإنّما يؤمنون إلى حينٍ وفي وقتِ التجربةِ يرتدُّونَ* والذي سقط في الشوكِ هم الذينَ يسمعونَ ثمَّ يذهبونَ فيختنِقون بهموم هذه الحياةِ وغناها وملذّاتها فلا يأتون بثمر* وأمَّا الذي سقطَ في الأرضِ الجيِّدةِ فهم الذين يسمعونَ الكلمةَ

فيحفظونها في قلبٍ جيّدٍ صالحٍ ويُثمرون بالصبر* ولمَّا قال هذا نادى من لهُ أذنانِ للسمعِ فليسمع.

تأمل

لنتساءل لماذا خربت أكثرية البذار؟ الخراب لم يأتِ من الزارع بل من الأرض القابلة الزرع أي من النفس التي لا تطيعه. ولماذا لا يقول أن بعض البذار قَبِلَها المتهاملون وأهلكوها، كما قَبِلَها الأغنياء وخنقوها واللامبالون فأهملوها جانبًا؟ لا يريد أن يهاجمهم للحال بطريقة قاسية مباشرة حتى لا يقودهم إلى اليأس بل ترك توبيخه إلى ضمير السامعين.

هذا لا يحصل مع الزرع فقط بل وأيضًا مع الشبكة لأن الشبكة جمعت أشياء كثيرة غير مفيدة. هذا المثل قاله لكي يدرّب التلاميذ مسبقًا ويعلّمهم أن لا ييأسوا حتى ولو ضاعت أغلبية الذين سوف يسمعون كرازتهم. كما حصل مع الرب نفسه. لأنه رغم علمه بما سوف يحصل لم يتهرّب من عملية الزرع.

وكيف يمكن أن نفهم أن الزارع زرع على الأشواك وعلى الأرض الحجرة وعلى الطريق؟ مع البذار والأرض لا نستطيع أن نتقبّل الفكرة. أما مع الزمن في محافظة العربية الرومانية (غلا ١:١٧) المتاخمة لمدينة دمشق. كذلك يخبرنا القديس إيرونيموس (٣٤٧-٤١٩) أنّ كثيراً من القبائل البدويّة في الجزيرة العربية كانت تجلّ إنساناً يُدعى هيلاريون الناسك وأنّه هو الذي قام بتنصيرها.ويذكر الأسقف إفسافيوس القيصري، الذي وضع في القرن الرابع كتاباً في التاريخ الكنسيّ، المدعو بيريلّوس بوصفه أسقفاً على العرب في القرن الثالث في بصرى، عاصمة محافظة العربيّة. والثابت كذلك أنّ خمسة أساقفة مثّلوا محافظة العربيّة في المجمع المسكوني الثاني (٣٨١)، فيما شارك سبعة عشر أسقفاً عربيًّا في المجمع المسكوني الرابع (٤٥١). وقد مارس القديس سمعان العمودي، في القرن الخامس، دوراً مهمًّا في تنصير العرب الآتين من بلاد ما بين النهرين. أمّا القبيلة المسيحية الأكثر شهرةً في بلاد الشام فكانت بني غسان، وقد سكنت في القرن الخامس محافظة العربية. في القرن السادس تحالف الغساسنة مع الروم البيزنطيين ضد الفرس ومكّنوهم من دخول العراق.

غير أنّ المسيحية العربية لم تكن منتشرة على حدود الجزيرة العربية مع بلاد الشام فحسب، بل كان اليمن الواقع جنوبي غربي الجزيرة، ولا سيّما مدينة نجران المهمّة، أحد أبرز مراكز النصرانيّة. تختلف الروايات حول زمن دخول المسيحيّة إلى اليمن وكيفيّة هذا الدخول. إذ فيما تعيد بعض الروايات تنصّر نجران إلى تاجر مسيحي يُدعى حيّان أو حنّان، تورد روايات أخرى أنّ اعتناق أهل نجران المسيحيّة تمّ على يد رجل من الشام يُدعى فيمون.

يُرجّح المؤرّخون أنّ تسرّب المسيحية إلى اليمن تمّ في القرن الرابع. بيد أنّ ساعد المسيحية هناك لم يشتدّ إلاّ في القرن الخامس. ولعلّ هذا ما دفع الملك اليهودي المعروف بذي نوّاس إلى شنّ اضطهاد واسع ضد المسيحيين (٥٢٣-٥٢٤) في اليمن استشهد بنتيجته القديس الحارث بن كعب ورفقته. وقد عرفت مسيحيّة اليمن بعد هذا الاضطهاد انتعاشاً لافتاً سببه ولاية سكّان الحبشة المسيحيين على اليمن (٥٢٥-٥٧٥). وقد سعى الحبش إلى نشر المسيحية في المنطقة المذكورة وبنوا كنيسةً كبيرةً في صنعاء هي التي عرفها العرب باسم القلّيس (من كلمة «إكليسيا» اليونانيّة،وتعني كنيسة) فذكروها في تواريخهم ووصفوها في كتبهم.

قبل ظهور الإسلام مباشرة، حكم الفرس اليمن ويبدو أنّهم تسامحوا مع المسيحيين هناك، ويدلّ على هذا استمرار حركة بناء الكنائس.

كان للمسيحية حضور أيضاً في الأطراف الشرقية للجزيرة العربية. ويرجّح المؤرّخون أن المسيحية دخلت شرق بلاد العرب من العراق بفضل الكنيسة التي كانت تدعو نفسها كنيسة المشرق، وعُرفت خطأً بالكنيسة النسطورية. وقد انتشرت الأسقفيّات المسيحية على طول الساحل الشرقي العربي من مصب الفرات إلى عمان مروراً بالبحرين وقطر، وأدّى هذا الانتشار إلى تنصّر بعض بطون القبائل العربية هناك. غير أنّ المؤرّخين العرب يشيرون أيضاً إلى وجود اليهود والمجوس في تلك المنطقة، ما يعني أنّ المسيحيّة، رغم تغلغلها في القبائل العربيّة الضاربة شرق الجزيرة،لم تكن الدين الوحيد في تلك البقعة.

أمّا في وسط الجزيرة العربيّة، ولا سيّما في الحجاز، فلقد كان الحضور المسيحي أكثر ندرةً. ولعلّ أحد أسباب عدم تمكن المسيحيّة من الانتشار الكثيف في هذه المنطقة وجود جاليةٍ

يهوديّة ثريّة متمسّكة بتقاليدها ودينها في مدن الحجاز الكبرى مثل يثرب وخيبر والطائف. لكنّ الحجاز لم يخلُ من المسيحيين. فالمعروف عن ورقة بن نوفل، قريب خديجة، أولى زوجات محمد، وأحد أول من اعترفوا بنبوّة الأخير، أنّه كان على النصرانيّة. ويشير حسّان بن ثابت في قصيدةٍ يؤبّن فيها رسول الإسلام إلى نصارى يثرب. واللافت أيضاً انتشار عدد من الرهبان والأديرة والمناسك في محيط المدن الكبرى وعلى طول الطريق التجاري المؤدّي من الحجاز إلى الشام. والأكيد أن نبي المسلمين احتكّ مباشرة بالمسيحيّة في الجزيرة العربية، ولا سيّما خلال أسفاره. وقد انعكس هذا إلى حدٍّ كبير في النصوص القرآنية كما أشرنا آنفاً.

السجود للأيقونات

يلومنا البعض لسجودنا لصورتي المخلص وسيدتنا مريم العذراء وتكريمنا إياهما، وكذلك صوَر سائر القديسين وخدّام المسيح، ولكن فليفطنْ هؤلاء أن الله قد صنع الإنسان منذ البدء على صورته الخاصة، وإلا ما هو السبب في سجود بعضنا لبعض سوى أننا مصنوعون على صورة الله؟ وعلى ما يقوله باسيليوس المتعمّق كثيرًا في الإلهيّات:«إنّ إكرام الأيقونة يعود إلى من تمثله في الأصل»، والمثال هو ما ترسمه الصورة وهي مشتقّة عنه... وهذا هو قول الله لموسى: «أنظر واصنعْ على المثال الذي أنت مُراه في الجبل». والكاروبان المظلّلان بالمجد، ألم يكونا صنع أيدي الناس؟ وماذا كان هيكل أورشليم الشهير؟ ألم يكن من صنع الأيدي وقد أتقن الناس زخرفته؟

لم يكن استعمال الأيقونات دارجًا في العهد القديم لأن الله لا يُرى... من يستطيع أن يصنع شبهًا لله الذي لا يُرى والذي لا جسد له ولا حدّ ولا شكل؟... فإن المحاولة لوضع شكل للإله قمّةٌ في الغباوة والكفر! لذلك لم يكن دارجًا في العهد القديم استعمال الأيقونات.غير أنه لما صار الله، بحشا رحمته، إنسانًا بالحقيقة لأجل خلاصنا، ليس كما تراءى لإبرهيم بهيئة إنسان، ولا كما للأنبياء، بل ذلك أنه بالحقيقة صار إنسانًا في الجوهر وعاش على الأرض وتردّد بين الناس واجترح المعجزات وتألم وصُلب وقام وصعد وحدث كل هذا بالحقيقة ورآه الناس ودوّنوه لتذكيرنا به وتعليمنا نحن الذين لم نكن حاضرين آنذاك، حتى إذا آمنّا بما لم نره ولم نسمعه، نحظى بتطويب الرب. ولكن لمّا كان لا يعرف الجميع الكتابة وليسوا بمتمرّنين على القراءة، فقد رأى الآباء أن يرسموا هذه التذكارات في أيقونات تمثّل بعض المآتي الشريفة في موجز تذكاري. وإننا كثيرًا ما لا نكون في حالة التفكير في آلام المسيح ونرى أيقونة صلب المسيح فننتقل بالذاكرة إلى الآلام الخلاصية ونرتمي ساجدين، ليس للمادّة، بل للمرسوم فيها، كما نحن لا نسجد لمادة الإنجيل ولا لمادة الصليب، بل لما يوحيان به إلينا. فما الفرق بين صليب لا يحمل مثال الرب وآخر يحمله؟ كذلك قل عن مثال أمّ الله. فإن الإكرام المقدّم لها يرتفع إلى المتجسد منها. كذلك أيضًا إن مآتي الرجال القديسين ترفعنا إلى الشجاعة والغيرة والتشبّه بفضائلهم وتمجيد الله.

القديس يوحنا الدمشقي

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb

النفوس وتعاليم الحقيقة فنتقبّلها ولا نكتفي بذلك بل نمدح مثل هذا العمل. لأن الفلاح سوف يُنتقد بالطبع إذا حقق مثل هذا الزرع لأن الحجارة لا يمكن أن تتحوّل ترابًا ولا الطريق ولا الأشواك أيضًا. أما من جهة الكائنات العاقلة فالأمر غير ذلك، لأن النفس المتحجّرة يمكن أن تتحوّل إلى أرض مخصبة كما يمكن للطريق أن لا تُداس بعد، أن لا تكون تحت تصرّف كل العابرين عليها، بل أن تصبح أرضًا صالحة. ولذلك يمكن للأشواك أن تزول، مما يضمن لبذار الحق أن تثمر. لأنه لو لم يكن الأمر هكذا لما زرعها الرب. وإن لم يحصل مثل هذا التحوّل في قلوب البشر فهذا لا يعود إلى الزارع بل إلى الذين لم يريدوا أن يتغيروا. لأنه من جهته عمل واجبه. وإن كان أولئك رفضوا محاولته فهذا لم يحصل بسببه إذ أظهر مثل هذه المحبة للبشر.

أما أنت فأرجو منك أن تلاحظ ما يلي: طريق الهلاك ليست واحدة بل هناك طرق مختلفة ومتناقضة فيما بينها. لأن أولئك الذين يشبهون الطريق هم المتهاملون واللامبالون بينما أولئك الذين يشبهون الحجارة هم الضعفاء بالإيمان.

القديس يوحنا الذهبي الفم